اتجاهات الأدب العالمي في العصر الحاضر

وكيف يتجه أدبنا

للأستاذ خليل هنداوي

تتمة ماتشر في العدد الماضي

والآن أراني أجلتُ إبراز الاتجاهات الاجتماعية والعوامل التي تؤثر في الآداب الحاضرة فأين نجد أدبنا في غابره وحاضره وكيف يتجه ؟

كنت أود أن يتسع لي المجال أو أن يرجأ البحث عن اتجاهات أدبنا في النابر إلى فرصة ثانية ، لأن التكلم عن اتجاهات أدب مهما كانت قيمته ليس بالشيء الذي يغني فيه الالمام ، ولكني ناظر إلى ناحية من نواحيه الاجتماعية القومية ، وغير خائض في خصائصه الأدبية .

إن أدبنا أيها السادة كان كثير الخصب والانتاج ؛ وتبارك الله ما كان أخصبه ! ولكن خصبه في الموضوعات التي تنب إليها اليوم كان خفيفاً جداً . خذوا الشعر مثلا ، والشعر أبرز ما راج في أدبنا ، فهو شعر لا أجده قد صفا كثيراً لنفسه ولا لمجتمعه . نما بعضه في جو ارستقراطي لايتصل بسواد الشعب ، نما في ظلال الطبقة المترفة ؛ وإذا غادر هذا الجو غادره إلى جو كان يرائي الأديب فيه ويداجي . أما المجتمع فلم يقم له أدب خاص يعبر عنه . وإذا أفاد بلاط الملوك والأمراء في نمو بعض الأدب الذي كانت تستحثه الدعايات والعصبيات فقد قتل ذلك الأدب الذي كان يجب أن ينطلق عن الحياة . وهذا التنبي على جلاله وهو الذي يعد أحدّ الشعراء مزاجاً وأكثرهم اندفاعاً لم يخلص من أدب الرياء . وهذا المرى الذي يطفح شعره ببعض نظرات متألقة لا نجد أن تأله كان نتيجة اختلاطه بالمجتمع ، ولكنه كان وليد تشاؤم صرف اختص به مزاجه . ويمكنني القول إن كثيراً من أدبنا خلقته أزمات سياسية وعصبية ليكون ضرباً من ضروب الدعاية . ولكنه كان مجرد دعاية تؤرث نار المداوة ، وتعبر عن نوازي العصبية في الأحزاب والقبائل وتحيي الضغائن في الأمة الواحدة . على أن أزمة الشعوبية التي احتدمت نارها بين الأعارب والأعاجم كان يجدر بها أن تخلق نوعاً قوياً من أدب الدعاية القومية ولكن الأدب لبث يعالي الأوساط المترفة ، ينظم لها الشعر مسبحاً بحمدها ، أو مسلياً لها من مللها وسأمها .

أما أدبنا الحاضر فلا يمكننا الركون إليه ، لأنه أدب مضطرب يمثل اضطراب هذه الثقافة المكتسبة التي لم تتم هضمها ولم تتمركز فينا ! أدبنا الحاضر لم يتحرر من قيود القديم سالكا طريقته الخاصة دون تردد . وأديبنا لم يؤمن بأن في الحياة التي تتكرر فصولها كل يوم أمام عينيه أدباً غنياً يغذي فكره ؛ وأديبنا لا يزال يعتقد بأن النزول إلى الحياة يضعف من قيمة أدبه . وبهذا يكتب الأدب فيه كل الألوان إلا لون الأدب ، وفيه أثر كل بيئة إلا بيئته التي هو فيها . على أن الأديب الحقيق حين يبث نفحة أرضه يحملها لتعانق نفحات الأرض كلها ، وحين ينشر نسمة شعبه ينشرها ليضمها إلى نسمات الشعوب !

لا أود أن أحدثكم من أدبنا الحاضر عن آفاقه الانسانية التي يسمو إليها ، ولا عوالمه الرحبة التي تتعانق فيها الانسانية ، ولا ذلك الجمال الذي يكسو الآثار الكونية به ، وإنما أحدثكم عن اتجاهات أدبنا من الناحية التي هي أصدق انطباقاً على حياتنا الحاضرة ، وهذه الحياة الحاضرة مؤثرة في أدبنا مهما فر منها ، وفي أديبنا مهما تجافى عنها ! لأن الأديب ليس كالعالم الذي يقدر أن يحيا في بيئة وكأنه ليس منها !

لو أراد واحد في الأجيال الآتية أن يستقرىء نفوسنا وحالنا لرأيته لايستطيع ، لأننا لانمثل في أدبنا عواطفنا ولا نصبغه بألواننا . إنا نكتب أدباً لا يمثل آلام حياتنا الاجتماعية والنفسية التي نعانيها . ألم تمر بنا أزمات مختلفة وظروف مروعة ؟ فأين الأدب الذي ولدته هذه الأزمات ؟ وأين قصة كقصة البؤساء تمثل البؤس الذي برح بنا في عهد الحرب ؟ وأين القصة التي تمثل حيرتنا وألمنا ؟ وأين مسرحية كمسرحية « غليوم تل » تصور أبطالنا وشهداءنا ؟ وهذا شوقي الذي خلف لنا تراثاً من سر حياته الشعرية لم يجد في هذه الأزمات ما أوحى إليه مسرحية يصور بها مشهداً من هذه المشاهد التي قد يكون فيها ماهو أشد وأقوى على خلق التأثير من الموضوعات المطوية التي عالجها في مسرحياته . وأخيراً أين ذلك الأديب الذي يترجم عن عصره ؟

على أن البعض يقول : وما عسى يغنى الأدب الذى يأتي بالتلقين لا بالالهام ؟ وكيف يملك الأديب حريته فى التعبير ، وإنما الأدب بحريته ؟

أجيب هذا البعض بأنى لا أدعو أدبنا إلى أن يتقيد ، وما كنت يوماً لأدعو إلى أن أخلق للأدب أجواء محدودة يخوض فيها . وكيف أدعو إلى تحديد اتجاهات الأدب والتحديد معناه وقف روحه وحريته التى لايحيا إلا بها ؟ كيف أدعو إلى حبسه ضمن تقاليد جديدة ؟ ولكأنى بذلك أهدم تقاليد وأرفع تقاليد وفى هذه وتلك عبودية ، وفى العمل نفسه عبودية أدهى !

أجل ! لا أريد أن يكون الأدب كله اجتماعياً ، أو ذاتياً ، أو إنسانياً أو قومياً ! وإنما أنشد أدباً حراً يستوحى ابداعه من قلب الحياة ، لايكون من الحياة على هامشها ، وإنما على متنها . ولا يمر هو بجانب ويترك الحياة بجانب آخر . وإنما همه أن يرافق الحياة فى مراحلها ، ويعمل على تفوقها وتساميها . همه أن يوجه الحياة كما يريد . وإذا تحدثت عن اتجاهات يتجه إليها فانما هى اتجاهات يكون للأديب فيها مادة غزيرة ، وعالم نبيل الغرض .

إننا أمة لانزال فى دور الكفاح ، الكفاح فى كل نواحيها . ودور الكفاح دور اضطراب وحركة ، وهذا الدور لايجمل بالأديب أن يمر به هادئاً ساكناً دون أن يرفع صوته ، وإنك لن تجد أمة خلا مثل هذا الدور فيها من أدب يمثلها ويعبر عنها ويستحثها ويجعل قلبها بركاناً هادراً مهما كانت هذه الأمة حرة النزعة ، انسانية المبدأ ، لأنها ترى قوميتها مثل انسانيتها ، ولن يصدق للانسانية قلب لا يصدق لوطنه ، وليكن أدبنا مجرداً ما أراد ، متوجهاً حيثما توجه ، ولكنا نريد معه أدباً قوياً يساهم فى بناء الجبهة القومية ، ويستمد روحه من الثقافة القومية ، ونريد معه أدباً اجتماعياً يخلق ثورة التجديد والابداع وينفض هذه المزق الرثة من التقاليد ، إذ لايؤتى الانقلاب السياسى ثمره إذا لم يكن مقروناً بالانقلاب الاجتماعى .

أحس هنا بل أكاد أسمع أصواتاً تنادي من حولى : أتريد أن تجعل من الأدب الواسع الانسانى خادماً للقومية ، ومهذباً للمجتمع ؟ كأنك لم تعرف التعاريف الأولية التي تفصل الأدب عن القوميات والفن عن الأخلاق التى ضيقت حدوده وأفسدت جماله الذى لايحيا إلا فى المطلق !

بلى ! إننى أفهم كما يفهمون ، وأدرك أن للأدب غاية أسمى وأعلى ، ولكنى ممن يعتقدون أن الأدب لايتجرد من شخصية أمته كالأديب لايستطيع أن يتجرد من شخصيته ولا يمكنه أن يكون إنسانياً قبل أن يكون قومياً ؛ وإذا تكلمت عن اتجاهات أدبنا الحاضر فان عوامل كثيرة تحملنى على تحديد هذه الاتجاهات ؛ وقد تكون هذه الاتجاهات مفيدة لظروف حاضرة تموت بموتها ، وقد يبطل غداً بعضها ويبقى بعضها ، وقد يبطل كلها ولكن ماهى مادمت أعتقد أن هذه الاتجاهات محيطة بحياتنا الحاضرة ، ولا نستطيع أن نحل عقدة من عقدها إلا بمقتضاها !

يظنون أن الأدب القومى أن يكون الأديب بوقاً ينفخ فى كل حادثة ، وفي مقدم كل وزير أو زعيم ، ومثل هذا الأدب لا يحتاج إلى أن نبدى إعراضنا عنه ، وإنما الأدب القومى روح يعلقنا بحب هذا الجو وهذه الأرض ، ويجلو لنا عن روائع الجمال فيها ، ولست أذكر أننى تلوت شيئاً من هذا !

أذكر أننى فى هذه السنة كنت أنا ورفاق نقوم برحلة فى أطراف الفرات الأوسط ، فجزنا قرية تدعى (الميادين) وكانت أناشيد الرفاق تتعالى . فهب من فى السوق يصفقون لهم ، فما راعنى ذلك ، ولكنى أبصرت رجلاً ضريراً مخدود الوجه ، ممزق الثياب ، هب يلمس بوجهه مواقع الصوت والصدى ويداه تصفقان ، فطفرت من عينى دمعة وتمثلت الشعور الوطنى يتيقظ فى نفسه . فقلت : ألا يجد أدباؤنا فى هذا المظهر مادة وموضوعاً ؟ ألا يجد شاعرنا عاطفة تهزه كالعاطفة التى ولدتها فيه قبلة محبوبة ؟ وأخيراً ألا نجد فى هذا الضرير رمزاً للأمة التى فقأوا عينيها فهبت تتلمس النور بغير الحاسة التى خلقت لالتقاط النور ، وقد استحالت كل حاسة فى جسدها عيناً تبصر ، وقلباً يشعر !

أعرف فى هذا البلد فئة — قد تكون مخلصة — تدين بالأدب الانسانى ، ولا تعنى بالأدب القومى ، تمشى فوق رءوس الحقب ، وتعلو على حالات عصرها لأنها فى اعتقادها حالات زائلة كالغيوم ؛ ولا أستطيع أن أناقش هذه الفئة ، ولا أن أصرفها عن غايتها النبيلة ، ولكنى أعلم أن الأدباء الانسانيين أنفسهم الذين بشروا بالدعوة الانسانية والأدب الانسانى هم قوميون قبل أن يكونوا انسانيين ، لأن الذى لا يتسنى له أن يحس آلام شعبه الذى هو من لحمه ودمه ، لجدير بألا يتسنى له أن يحس آلام الانسانية . .

اتركوا الأدب والفن وعودوا إلى العلم المجرد والأخلاق تجدوا
ن كل شعب يثبت فيهما شخصيته التي تختلف عن شخصية غيره .
أملوا الطرق الرياضية الجبرية التي يسلكها العقل الجرماني تجدوا
نها طرق مطلسمة مبهمة تلائم هذا العقل . على حين أن العقل
فرنسي الرقيق يخضع المنطق له ويسلك فيه الطرق الواضحة .
كذلك قولوا في الأخلاق : فكل أمة رتبت أنظمتها بحسب
اداتها . ولو أن طريقة العلم واحدة لما وجدنا طريقة كل عالم
تلف عن طريقة الآخر ... وإذا كان هذا شأن العلم والأخلاق
كم يكون اختلاف الأدب والفن اللذين يترجمان عن حياة الأمة؟

يقولون : لا وطن للفن ! باعتبار أنه إذا صدر عن انسانية
ينة فإنه يخص كل الناس . لأن الانسانية الكلية هي مجموعة
ذه الانسانيات ، والفن الكلي هو مجموع هذه الفنون ، والفن
لة القربى بين الناس .

يقولون : لا وطن للفن ! وأنى لنا أن نسلخ الفن عن الشعب
ي خلقه على صورته ، أبالا مكان أن نسلخه عن الطبيعة التي
اطت به ، والتراب الذي حمله ؟ والسماء التي حنت عليه ، والهواء
ي تنشقه ، والوطن الذي احتضنه ، وصدى أصوات الأجداد
ين نقلوا إلى الأحفاد ما ورثوه ؟ إن الشعب باستطاعته أن يقتبس
شعب آخر ثم يبقى ما يقتبسه كما هو ؛ ولكن من جراء ذلك
يتنازل عن شخصيته ، ويخضع لهذا الغريب خضوعاً أعمى لا يفسر
بالجحود بعبقرية الوطن . لقد أخذت روما عن اليونان أنظمتها
نونها التي أحبتها ولكنها لم تفهمها ، فأعطت زخرفة جميلة ولكنها
مط أثراً فيه حياتها . وهكذا لا نستطيع أن نقول : هذا
ب انساني قبل أن نقول: هذا أدب عربي أو إيطالي أو جرماني!
أطوار الأدب والفن هي ترجمان صادق عن العصر المتحول ،
بر لنا مراحل الطريق ، ومراحل السعي ، ويحدد لنا أعمار
مة ، ومن خلال كل هذه الخطوط والصور والألوان نجد صورة
طن ، ونستشف ملامحه الحقيقة ؛ وقد رأينا أن الأدب أكثر
اع الثقافة تعلقاً بحياة الأمة ، لأنه لا يصور إلا حياتها ولا يسرح
في جوها ، والذرية البشرية تكتسب من بيئتها صفات متي
ن الوقت أظهرتها ، وحولتها إلى الابداع ؛ وعصير الأرض
طنية يسقي الشجرة الانسانية ؛ وبهذه الانسانية الشخصية ،
وبهذا المثل الأعلى الخاص يعلن كل شعب مزاياه وعبقريته .
والعظماء أنفسهم لم يستغنوا عن هذه القاعدة ، لأنهم كانوا قبل كل
شيء وليدي بيئتهم وجيلهم .

إن انكار القومية ليس جحوداً بقيمة التاريخ وتأثيره فحسب ،
بل هو إغضاء عن الجغرافية وجهل بعمل الأرض والسماء والبيئة ،
لأن الأوطان ليست بفكرات خيالية ولا شعرية ولا وهمية ، وإنما
هي حقائق ظاهرة ثابتة ؛ والثقافات المختلفة تثبت ذلك ، وكل
وطن يحدد حياة أهله ويلهمهم فنه ! ولكل شعب أدبه وفنه ،
وهو بهذا يمثل دوره في القصيدة الكبرى ، وإنا نود أن نعود إلى
حمل مشعل جديد ورسالة جديدة إلى الانسانية ، ولكنا نريد ألا
تصرفنا هذه الانسانية عن قوميتنا ، بل نريد أن نكف عن هذه
الانسانية إذا ساومتنا على قوميتنا !

أذكر في هذا الموقف حادثة طريفة أدبية تمثل تأثير القومية
في الأفراد الذين كانوا يؤمنون بالدعوة الانسانية . لقد كان العالم
الناقد الفرنسي « تين » ذا ثقافة ألمانية صرفة . كان يعجب بألمانيا
ويحبها حباً جماً ويراها له وطناً ثانياً بعد فرنسا . وكان يرى مع
الفيلسوف « رينان » ان ألمانيا هي أم العقل والذكاء . وأن الألمان
هم أساتذة العالم في العلوم والآداب والفلسفة ، وهم أساتذة العقل
الراهن . هبت حرب السبعين ، وغمرت ويلاتها الفرنسيين .
فضربت اعتقاد « تين » في الصميم ، وكانت له يقظة قاسية مؤلمة ،
إذ وجد القول بأن العلم الانساني هو كل شيء للانسان قولاً
كاذباً ، وألفى ان الفن لا يحيا اذا كان الوطن يتمرغ في الشقاء ،
فأخذه الاشفاق على وطنه ، وحمل بعدها حملات عنيفة على غطرسة
العقل الألماني الانساني ، وقال : « ان زمان العلم الخالص الانساني
قد انتهى ... والآن يجب قبل كل شيء أن نساعد فرنسا على
أن تحيا حياة تنطبق على حياتها الماضية ... »

ونحن في مرحلة شبيهة بهذه المرحلة ، لا يجدر بنا في
الوقت الذي تفتش فيه الأمم عن قوميتها ، أن نضيع قوميتنا
بحجة الانسانية . وقد قدمنا للانسانية تراثاً خالداً من الدين
والفلسفة في سبيل الانسانية ... وكيف نطمع ونحن ضعفاء
القومية أن نفيد الانسانية ؟ والأمة الضعيفة القومية لا تعطي
نتاجاً !

أعطونى أمة ضعيفة القومية ذات نتاج خالد ! أليس لنا في اليونان أمة العبقرية والفنّ مثل واضح على ذلك ؟ لقد تحجرت مواهبها وعبقريتها منذ تلاشت قوميتها . وهل أعطي العرب نتاجهم الأدبي إلا يوم كانوا أقوياء ؟ وأى نتاج لهم فى عصر الضعف والتلاشى ؟ وهل يدرس الطلاب من الأدب الغربي إلا أدب الأمم التى ثبتت قوميتها ، وخفقت حريتها ؟ . . . وإذا كانت الثقافة أحلت لهذه الأمم أن تسخر ما لا يسخر للدعاية أفهل يلومنا أحد على أن نسخر هذا الشئ نفسه لغاية أسمى وأعلى ، لغاية إحياء قومية نبيلة : « ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » . . . إنى أخاف إذا غالينا فى تجريد أدبنا من قوميتنا أن يقولوا : هذا أدب إنسانى ولكن بلا وطن! وضعف القومية يقتل كل خاصة مبدعة فى الشعوب . لقد عملنا عملنا الانسانى كأفراد فلنجرب أن نعمله كأمة !

نحن فى مرحلة نستطيع أن نقول فيها للأديب ما قاله وزير الدعاية النازية : « لايحق لك أن تقول « لايهمنى شيء من هذه المرحلة » . وما قاله مكسيم غوركي « يجب على كل أديب أن يشعر بمسئوليته الخطرة فى هذه المرحلة لأن عليك أيها الأديب يتوقف كل شيء لأنك لست حاكياً ترددّ ، ولا آلة فونوغرافية عمياء تصور ما يعرض لعدستها ، ولا اسطوانة حاك تستنطقها أية إبرة نفس الكلمات ، وإنما أنت الصوت وغيرك الصدى . أنت الريشة التي تصور ، والأمة الأخيلة التى تلتقطها . أنت الابرة التى تنقش على الاسطوانة ما تريد والشعب الاسطوانة ، فعليك أن تتخير الكلمات التى تريد أن تنقشها . . . وإذا كان هم الرجل السياسى أن ينظم علاقات أمة وشؤونها فى الداخل والخارج . فان هم الأديب أن يوجه حياتها ومجتمعها . ويعطينا أدباً يستمد حياته من قلب حياتها لا من بطون الكتب والحجارة . . . »

الساعة قد دنت : وعلى هذه الأرض التى سطعت عبقريتها يريد جديد من المجد والجمال أن يتيقظ !

إنا تذوقنا من ألوان الاضطهاد فى الأجيال السابقة ما يجعلنا نسخر حتى السماء فى تشييد حريتنا وقوميتنا . . . فكيف لا نسخرك أيها الأدب لهذه الحرية ، وكيف لا نسخركم أيها الأدباء لأدب أرى فيه وجه أمتى . ؟

منير الشرارى

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٥ —

الرافعى فى أهله

« إذا رأيت رجلا موفقاً فيما يحاوله مسدّد الخُطا إلى الهدف الذى يرمى إليه ، فاعلم أن وراءه امرأة يحبها وتحبه ! »

وأنا لا أعرف — فيمن أعرف — أحداً تنطبق عليه هذه الحكمة الغالية انطباقها على حياة الرافعى ؛ فالواقع الذى يعرفه كل من خالط الرافعى واتصل به وعرف طرفاً من حياته الخاصة ، أنه ما كان ليبلغ مبلغه الذى بلغ لولا الحياة الهادئة التى كان يحياها فى بيته ؛ فالى زوجه يعود فضل كبير فى نجاحه وتوفيقه وهدوء نفسه ، هذا الهدوء الذى هيأه إلى دراسة نفسه ودراسة من حوله والتفرغ لأدبه وفنه ، لا يشغله عنهما شاغل مما يشغل الناس من شئون الأهل والولد .

وقد تزوج الرافعى في الرابعة والعشرين من عمره ؛ ولزواجه قصة فيها طرافة وفيها مجال للفكر والنظر ؛ ومادمت قد أخذت على نفسي أن أكتب عن الرافعى فى كل أطواره ، فلا على أن أقول ما أعرف من قصة زواج الرافعي ؛ ولا أحسبنى بذلك أتجاوز مالى من الحق أو أتعرض لعتب أو ملامة ، فقد خرج الرافعى من ملك نفسه وأهله إلى حكم التاريخ ، وللتاريخ حق واجب الوفاء

وزوج الرافعي مصرية صريحة النسب ، من أسرة البرقوق المعروفة فى (منيه جناج) — دسوق — وأخوها الأديب الكبير الأستاذ عبد الرحمن البرقوق صاحب (البيان) ؛ وقد كانت صلة الأدب بين الرافعى وعبد الرحمن البرقوق هى أول السبب فى هذا الزواج .

حدثنى المرحوم الرافعى قال : ... كنت فى الرابعة والعشرين وكنت أعرف عبد الرحمن البرقوق نوعاً من المعرفة التى تربط